

محاورة أفلاطون الخيالية

حول التربية الانجليزية

للأستاذ عبد العزيز عبد المجيد



يعتبر سقراط أول من وضع الأسلوب الحوارى الاستنباطى أسلوب التهكم الذى يقف نفسه فيه موقف الجاهل ، ثم يحوق أسئلته البريئة اللاذعة التى تصير بالمستول إلى حال التشكك والحيرة؛ غير أن سقراط لا يلبث أن يستدرج محاوره إلى الناية الخفية التى يضمها ، والتى يريد كشفها بأسئلته وتقاشه ، فيتجلى الأمر ويصل إلى النتيجة ، ولا يجد محاوره مفراً من التسليم له بوجهة نظره من غير أن يقصد إلى ذلك

ولقد نهج أفلاطون فيما كتبه - ولا سيما فى جمهوريته ومحاوراته - نهج أستاذه سقراط : فى « الجمهورية » مثلاً يعالج مبدأ العدالة فى مدينته الفاضلة بأسلوب استنباطى حوارى على لسان سقراط نفسه . غير أن الحديث يتشعب به فينتقل من موضوع إلى موضوع ، ومن بحث إلى بحث ، حتى يخيل لقارئه أنه يكاد يفقد الفكرة التى بدأ بها موضوعه الأول ، ولكن لا يلبث حتى يعود إليها

ومما طلجه أفلاطون فى « الجمهورية » موضوع التربية . وآراؤه فيها - وإن كانت قد أصبحت قديمة كيمض فلسفته - تستحق إيرادها هنا كتمهيد لتلك المحاورة الخيالية التى سأقولها للقراء من الإنجليزية ، والتى دارت بين أحد الربين الإنجليز وبينه حين بحث منذ أربع سنوات ، بعد أن مر على وقته ثلاثة وعشرون قرناً

يرى أفلاطون فى « الجمهورية » أن هناك ثلاثة أنواع من الناس : نوع وهبه الله الحكمة والدكاء ، وهؤلاء يرثون إلى أن يصلوا إلى مرتبة الحكام للفلسفة ، وهم الناسة المفكرون ، ذوو الأمر والنهى والرأى الطامع ؛ ونوع دونهم فى الدكاء والقدرة الفلسفية ، وهؤلاء يرثون ليكونوا مساعديهم فى الإدارة والتنفيذ وليكونوا رجال الجيش الذين يحفظون للنظام داخل الأمة ويذودون عن حياتها فى الخارج ؛ ونوع فى المرتبة الدنيا غير الوهوبة التى

لا تصلح إلا للزراعة والتجارة والصناعة ، وهؤلاء يكونون جمهرة للشعب وعامته

والمحاورة الخيالية التى سأوردها هنا من وضع الأستاذ كرسيمان Crossman بجامعة أكسفورد . وقد أذاعها من محطه لندن ضمن سلسلة أحاديثه التى تشمل أيضاً : أفلاطون والديمقراطية الإنجليزية ، أفلاطون والأسرة الإنجليزية ، أفلاطون والاشتراكية ، أفلاطون والنظام الفاشستى الخ (١) . وهما هى ذى المحاورة :

أفلاطون للربي : يقال إنكم أنتم مشر الإنجليز مهتمون بالتربية ومعضلاتها ، ومصممون على بيان نظامها على أسس قوية لأنكم تدركون أن تربية للنشء تربية صحيحة ، إنما هى عامل فعال فى إصلاح شؤون الدولة ، وأن سلامة الأمة لا تكون إلا بالتربية الحقة

الربي : نعم ، الأمر كذلك . ولقد خطونا خطوات مباركة فى الخمسين سنة الماضية . ولعلك لا تدري أننا حتى سنة ١٨٧٠ لم يكن لنا نظام تعليم حكوى موضوع ، ولم يكن عندنا تشريع للتعليم الإيجارى ، ولم تكن عندنا كليات ثانوية للبنات بجانب العدد القليل من مدارس البنين الثانوية الصالحة ، ولم يكن لنشر أتياع الكنيسة الإنجليزية حق فى التعليم العالى مما كانت تروثهم . أما الفقير فلم يكن له نصيب من التعليم الجامعى ولو كان من الثابنين . ولكن كل هذا قد تغير الآن . فالتعليم الإيجارى إلى الرابعة عشرة ، والتعليم الثانوى إلى الثامنة عشرة . وهو نصيب نسبة كبيرة من الناشئة التى هى أهل له . وعندنا عدد لا بأس به من الجامعات التى تهيئها الحكومة مالياً ، والتى يتلقى فيها الشباب التعليم العالى إلى لثانية أو الثالثة والمشرين

أفلاطون : حقاً لقد كنتم نشطين فى ميدان التربية خلال هذه الحقبة الماضية ، وإنى لأهنئكم على أنكم أيتم أن تدعوا للتربية كما كانت فى يد الأسرة فقط ، أو غيرها من الهيئات التى لا تقدر هذه التهمة ، تيمة نشئة الجيل القادم . ولكنى أود أن أعرف جلياً الأسباب التى من أجلها وجهتم كل طاقنكم لجعل التعليم العام حقاً لكل فرد من أفراد الشعب

الربي : مما لا شك فيه أن من بين الأسباب التى دعنتنا لهذا إيماننا بمبدأ العدالة . فنحن شعب ديمقراطى ، ونعتقد أن التربية

(١) قلا من كتاب Plato to-day مؤلفه R. H. Crossman

شموره بضرورة اشتراكه في أمور السياسة الخارجية والداخلية ؟
المرئى : نعم ، أعتقد ذلك ، فالشعب قبل الحرب الماضية مثلاً
ما كان ليمنى بالشئون الخارجية ، أما الآن فالشعب جميعه يعنى
بالسياسة الخارجية ، ووزير الخارجية في البرلمان أكثر للنواب
حديثاً ، وأكثرهم إجابة عن الأسئلة المتنوعة التى توجه إليه من
كل حزب ومن كل صوب ، ولا تسمع الآن في أحاديث الأسرة
الإنجليزية إلا أخبار الحرب والسلام

أفلاطون : ولكن هل تظن أن لاهتمام الشعب بالسياسة
الخارجية وتدخله فيها كما ذكرت أترأ في اعتدال هذه السياسة
وتحسبها ؟

المرئى : من غير ما شك . وآية ذلك أن الحكومة لا تستطيع
الآن - كما كانت تستطيع من قبل - أن تقرر في الخفاء أى شأن
من شئون السياسة الخارجية

أفلاطون : إن سؤالي مرة أخرى هو : هل كان لاهتمام
الشعب بالسياسة الخارجية أثر في اعتدال هذه السياسة وتحسبها ؟
المرئى : أجل ، لقد جعل اهتمام الشعب بالسياسة الخارجية
الحكومة تدرك تبعة تصرفاتها ، وأنها مسئولة عنها أمام هذا
الشعب الذى انتخبها ، فهى إذاً لا تستطيع أن تعمل ما تشاء ،
ولكن ما يشاؤه الشعب

أفلاطون : ولكن هب الحكومة أرادت أن تفضل شيئاً تراه
هى صالحاً ، ولا يراه للشعب كذلك ، فما هو الموقف ؟

المرئى : نحن نعتقد أنه من الحكمة أن يفضل الشعب لفعله
الخاطئة بإرادته وحرته متى قرر ذلك بدلاً من أن يكره على عمل
الصواب ...

أفلاطون : كأنى بك تعتقد أن الحرية خير من الفضيلة ؟
المرئى : لا ، لا أعتقد هذا . ولكن الرأى عندى أن للفضيلة
مستحيلة بدون الحرية . إنك لا تستطيع أن تكره الطفل على
أن يكون خيراً ، بله للكبار من الرجال والنساء

أفلاطون : قد تكون على حق ، وإذا فلماذا تريدون الحكومة
ما دام للشعب يريد أن يعانى للتجارب القاسية بأفعاله الخاطئة
وتصرفاته الخفاء ، وهو مطمئن لأنه قام بها بمحض حريته وبجرد
رغبته . ألا ترى أن الأصاح إلغاء للنظام الحكومى نهائياً ؟

المرئى : إن أسئلتك كالحلقة المفرغة لا يدرى لها طرف .
وإنك لتلم بسبارتى وتهكم حتى ليحسبها السامع جوفاء ...

يجب ألا تكون وفقاً على طبقة خاصة من الشعب ، بل يجب
أن تكون حقاً مشاعاً لكل فرد . وما فائدة أن نخول للفرد
حق الانتخاب واختيار من يمثله في المجالس النيابية إذا كان هذا
الناخب جاهلاً لا يحسن اختيار ممثله . وتربية الشعب هى الوسيلة
التي بها يكون للانتخاب أو التمثيل النيابى معناه ومنزاه ،
فلا يكون له ذلك للظهور الصورى التقليدى . ومن السهل أن يكون
للأمة حكومة نيابية ، وهيئة برلمانية ، ومؤسسات ديمقراطية ،
هى نتيجة الانتخابات العامة . ولكن كل هذه مظاهر خادعة
ما لم يكن للشعب مطلقاً . والمؤسسات الديمقراطية لا تجعل
الشعب ديمقراطياً ، ما لم يكن أفرادها قد عرفوا معنى الديمقراطية
واستطاعوا أن يجتمعوا بها ، وأن يستفيدوا منها . ومعرفة معنى
الديمقراطية واستغلالها الحكيم ليس شيئاً يصح من السماء ،
بل لا بد خلقها في نفوس الشعب من المثل والمجهود . ونحن
جادون في هذا السبيل بالتربية التى تقدمها لأبناء الشعب في
مدارسنا . وليست التربية عندنا أن نصب عقول الناشئة
في قوالب منتظمة ، فنخرج قطعاً منتظمة تتركب في مجالات الحرك
الحكومى ، فتؤدى وظيفتها دائرة مع هذه المجالات دوراناً أليكم .
حتى إذا هراها للصدأ أو تحطمت ألقينا بها جانباً ، واستبدلنا بها
غيرها ، والحقيقة هى أننا لا نريد أن نجعل أبناء الجيل القادم
صناعاً مهرة فحسب ، ولكننا نريد أن يكونوا مواطنين صالحين
في شعب ديمقراطى ، قادرين أن يقوموا بدورهم بنجاح فيما هم
أهل له ، سواء أكان ذلك في ميدان الكرة ، أم في نقابة التجار
أم في المجلس المحلى أم في دار النيابية . نريد أن نشههم بحيث يتصرفون
كيف يحسون أنفسهم ويساعدون من يحكمهم . فأنت إذا ترى
أن غاية التربية في مدارسنا ليست إقدار الناشئة على كسب
الخبر ونيل الوظائف ، ولكن الغاية من تعليمهم التاريخ والجغرافيا
والاقتصاد هى أن يصبحوا في أمتهم أعضاء يقدرون حقوقهم
المدنية ، ويمرفون واجب الأمة عليهم

أفلاطون : صحيح كل هذا ، وهو يطابق تماماً ما قرأته
لأحد ساستكم إذ يقول : إن التعليم العام للشعب ما هو إلا تجربة
في الحكم الذاتى . ولقد كان لهذه العبارة أثرها ومناها في نفسى
لأنى أنا كنت قد حادثت في مدينتى للفاضة أن أجل جميع
أفرادها يشتركون في حكومتها الذاتية . غير أن تجربتى لم تنجح
فحدثنى إذاً من نتائج تجربتكم التربوية هذه ، وهل توقظ في الشعب

إلا مطاعم تجار اللحاح والذخيرة والرأسماليين . أما عامة الشعب فتريد السلم والمدالة المالية

أفلاطون : هذا جميل حقاً ، ولكن هل يعرف أفراد الشعب كيف يحققون هذه المبادئ المالية السامية ؟ دعني أنبئك وما ينبئك مثل خبير ؛ إن فن السياسة فن دقيق صعب للراس ، وإن علوم الحرب ليست من العلوم التي تدرّك في يوم ؛ فهل ترى أن أفراد الشعب خيرون بفنون السياسة عليمون بتاريخ العلاقات الدولية ؟ أو هم فقط غيورون متحمسون تدفعهم المواطن النبيلة ، فإذا ما صدستهم الحقائق الصماء ذهبوا كقطرات الصابون في الهواء

المرئي : نحن الآن جادون في تعليم فن السياسة والعلاقات الدولية . ولكن الحق هو أن هذا العالم يحتاج إلى قليل من المكر السياسي ، وكثير من الخلق السقيم

أفلاطون : نحن على وفاق . فإن كل ما يحتاج إليه المواطن هو المواطن الخلقية القوية القويمة . ولكن هذه المواطن وحدها لا تكفي لتكوين من يصلحون للحكم . وأنتم في مجريكم التي تقومون بها الآن بتربية الشعب تحاولون أن تُعدّوا جيلاً يستطيع أن يحكم نفسه بنفسه . وعندى أن هذا الجيل يحتاج إلى شيء آخر يجوار المواطن الخلقية التي أشرت إليها . إن مهنة السياسة تحتاج إلى مارة ولباقة عقلية . وإذا فلا بد أن نفرق بين التربية التي يحتاج إليها المواطن المادي والتربية التي يحتاجها الحاكم السياسي . فهذا الأخير يجب أن يعرف شيئاً : قواعد السياسة التي يريد أن يتبناها ، والعالم التي يريد أن يطبق فيه هذه القواعد . فهو باحترافه السياسة يشبه كل صاحب مهنة فقد نجد الرجل المرم بالصورة الجميلة ، التي يدرك الجمال أن يكون ويحب بكل قواه ، ولكن هذا الإغرام أو الحب لا يخلق منه رساماً أو مصوراً . فالصور لا بد له من معرفة قواعد التصوير ، وخواص الألوان ومزجها ونتيجة أخلاطها ، وأنواع الأوراق والمواد التي يستعملها في تصويره ، وأسنان الفراخيف التي يستخدمها وهم جرا . هذا إلى المهبة الطبيعية التي تكون فيه . والأمم كذلك في الحكم ؛ فليس يكفي أن يكون الحاكم ذامبول خلقية نبيلة كعبه للعدل والسلم ، لا ، بل لا بد من أن يعرف أصول السياسة ، وحوادث العالم الهومية ، العالم التي سيطبق فيه أصول سياسته . فأمر السياسة العالمية الخارجية إذاً ليس

لا يختلف اثنان في أنه يجب أن يحال بين الأفراد وبين أي تصرف يتنافى مع حرية غيرهم . وهذه هي الحكمة في قيام الحكومات ، ولكن يجب أن تترك الحرية لأفراد الشعب بقدر المستطاع ليقرروا بأنفسهم مصير شئونهم . إن الهدف الذي نرى إليه — نحن للربيع — في هذا العصر هو أن نمد مواطنين يحسنون استخدام حقهم الانتخابي ، ويرفون كيف ولم ينتخبون ، فلا ينتظر منهم أن يكونوا خبراء في شئون السياسة والاقتصاد ، ولكن يكفي أن يكونوا ذوي بصير وفكر بهما

أفلاطون : أأنت تفر أنك لم تكونوا بصد هذا النوع من الرجال ؟ فيم إذاً تتسجلون — قبل أن تم مشروعاتكم التعليمية وتنضج — فتكاون إلى أنصاف التملين من الشعب الفصل في شئونكم السياسية ؟ إن هذا لقب للموضوع وللوضع المنطق الواجب أن يكون عندكم أولاً نظام عام للتربية يكون هؤلاء المواطنين الذين وصفتم في نقاشك ، وحينئذ تكون إليهم معلمين الإشراف على سياسة الدولة داخلية وخارجية ، غير أني أعتقد أنكم متى كونتم هذا النوع من المواطنين كامل التربية لم تمدت حاجة إلى أية حكومة

المرئي : لقد عدت بنا من حيث بدأنا . إن العالم لم يصل بعد إلى النثل الأعلى ، ولن يصل إليه ، فلا مفر من مواجهة الواقع كما هو ، ونحن في بلادنا نعتقد أننا إذا وكلنا إلى المواطنين الماديين الإشراف على أمورهم ومستقبلهم فإنا نطهيم الحرية التي بدونها نرى الحديث عن القضيّة والخلق لغواً

أفلاطون : لقد قلت الآن إن الغاية من قيام الحكومة هو منع الأفراد أن يتمدوا في تصرفاتهم إلى حقوق الآخرين ، وإلزامهم أن يتصرفوا لأمرهم ويدعوا غيرهم وشأنهم ، فإذا كان الأمر كذلك فن واجب الحكومة ، في سياستها الخارجية ، أن تحول أيضاً بين أفراد شعبها وبين تمديهم إلى حقوق غيرهم من أفراد للشعوب الأخرى . وأنت الآن تريد مواطني بلادك أن يوجهوا الحكومة فيما تبخته من الشئون المالية ، وأن يتدخلوا فيما تقرره منها . ومعنى هذا أن سياستكم الخارجية ستكون طبعاً خاضعة لنفوذ ذوي المصالح الشخصية من المواطنين الذين همهم الوصول إلى منافهم المادية على حساب الشعوب الأخرى

المرئي : كلا ، إننا نتوقع عكس هذا ، إن عامة الشعب لا ترغب في الحرب ، وليس له مطاعم مادية أو استثمارية ، إن هذه